تفسير سورةُ فصلت

من آية (37) إلى آية (44)

اللقاء الخامس

المعنى الإجمالي من آية (30) إلى آية (36):

يقولُ تعالى مُبيِّنًا حُسْنَ عاقبةِ المؤمنينَ: إنَّ الَّذين قالوا: ربُّنا اللهُ، ثمَّ استقاموا على أمْرِه سُبحانَه تتنَزَّلُ عليهم الملائِكةُ بأنْ لا تخافُوا ممَّا يُستقبَلُ، ولا تَحزَنوا على ما مضَى، وأبشِروا بالجنَّةِ الَّتي كُنتُم تُوعَدونَ بدُخولِها، نحن كنَّا أولياءَكم في الحياةِ الدُّنيا، وكذلك نكونُ في الآخِرةِ، ولكم في الآخِرةِ ما تَشتَهيه أنفُسُكم، وما تَطلُبونَه وتتَمَنَّونَه؛ ضيافةً وإكرامًا مِن الغَفورِ الرَّحيمِ سُبحانَه وبِحَمدِه.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه مَنزلةَ الَّذين يقومونَ بالدَّعوةِ إلى الحقِّ، فيقولُ: ولا أحَدَ أحسَنُ قَولًا مِمَّن دعا النَّاسَ إلى توحيدِ اللهِ وطاعتِه، وعَمِلَ صالحًا، وقال: إنَّني مِن المسلِمينَ.

ثمَّ يُرشِدُ اللهُ تعالى إلى ما يُؤدِّي إلى إشاعةِ المحَبَّةِ، فيقولُ: ولا تَستوي الخَصلةُ الحَسَنةُ مع الخَصلةِ السَّيِّئةِ في الجَزاءِ؛ فادفَعْ -يا مُحَمَّدُ- السَّيِّئةَ بالخَصلةِ الَّتي هي أحسَنُ؛ فأحسِنْ إلى مَن أساء إليك، وادْعُه بالحِكمةِ والرِّفقِ، واصفَحْ عنه، واصبِرْ على أذاه؛ فإنَّك إنْ فعَلْتَ ذلك صار مَن هو عدوٌّ لك كأنَّه صَديقٌ شَديدُ المحبَّةِ لك.

وما يُعطَى هذه الخَصلةَ الشَّريفةَ إلَّا الَّذين صَبَروا، وما يُعطاها إلَّا ذو نَصيبٍ وافرٍ مِنَ الخَيرِ.

ثمَّ يُرشِدُ اللهُ عبادَه إلى ما يَعصِمُهم مِن الشَّيطانِ، فيقولُ: وإنْ يُوَسْوِسْ لك الشَّيطانُ -يا مُحَمَّدُ- لِيُفسِدَ بيْنَك وبيْنَ غَيرِك، فالتَجِئْ إلى اللهِ؛ ليَعصِمَك منه؛ إنَّ اللهَ هو السَّميعُ العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ.

(أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ)

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿37﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن حيان: لَمَّا بيَّن تعالَى أنَّ أحسَنَ الأعمالِ والأقوالِ هو الدَّعوةُ إلى اللهِ؛ أردَفَه بذِكْرِ الدَّلائلِ العُلْويَّةِ والسُّفليَّةِ على قُدْرتِه الباهرةِ، وحِكْمتِه البالِغةِ، وحُجَّتِه القاطعةِ

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) أي: ومِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على وُجودِه ووَحدانيَّتِه، وقُدرتِه ورَحمتِه بعِبادِه، وغيرِ ذلك مِن صفاتِ كَمالِه: اللَّيلُ والنَّهارُ في تَعاقُبِهما، واختِلافِهما في الظَّلامِ والضِّياءِ، والزِّيادةِ والنُّقصانِ، والاستِواءِ وغيرِ ذلك؛ ومِن آياتِه الشَّمسُ والقَمَرُ في دَوَرانِهما المستَمِرِّ بانتِظامٍ، وتَقديرِ مَنازِلِهما لِمَصالِحِ الأنامِ، وغيرِ ذلك مِن مَنافِعِهما وعَجائِبِهما. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ [الإسراء: 12].

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ

وعن أبي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ آيتانِ مِن آياتِ اللهِ، لا يَنكَسِفانِ لِمَوتِ أحَدٍ ولا لحَياتِه، ولكِنَّ اللهَ تعالى يُخَوِّفُ بها عِبادَه)). رواه البخاري

(لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) أي: لا تَسجُدوا -أيُّها النَّاسُ- للشَّمسِ، ولا تَسجُدوا للقَمَرِ؛ فهما مُدَبَّرانِ مُسَخَّرانِ، واسجُدوا للهِ وَحْدَه الَّذي خلَقَهنَّ، إنْ كنتُم تَعبُدونَ اللهَ وتَذِلُّونَ له بالطَّاعةِ حَقًّا. موسوعة التفسير

قال البقاعي: فيه إشارةٌ إلى الحَثِّ على صِيانةِ الآدَميِّينَ عن أن يَقعَ منهم سُجودٌ لِغَيرِه تعالى.

الشَّمسُ أعظَمُ ما يُرى في عالَمِ الشَّهادةِ، وأعَمُّه نَفعًا وتأثيرًا، فالنَّهيُ عن السُّجودِ لها نَهيٌ عَمَّا هو دُونَها بطَريقِ الأَولى، مِنَ الكواكِبِ والأشجارِ وغَيرِ ذلك.

قال ابن عثيمين: أنَّ مِن بلاغةِ القُرآنِ أنَّه إذا ذُكِرَ الحُكمُ ذُكِرَ الدَّليلُ العقليُّ عليه؛ لِقَولِه: وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ، فقولُه: (اسْجُدُوا للهِ) أمرٌ شَرعيٌّ، وقولُه: (الَّذِي خَلَقَهُنَّ) دَليلٌ كَونيٌّ قَدَريٌّ على أنَّ المستَحِقَّ للسُّجودِ هو الَّذي خَلَق هذه الأشياءَ.

كما قال تعالى حِكايةً عن هُدهُدِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ: (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) [النمل: 23 - 26].

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ ﴿38﴾

(فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) أي: فإنْ تكبَّرَ المشرِكونَ وتعاظَموا عن إفرادِ اللهِ بالعِبادةِ والسُّجودِ له وَحْدَه، فله عِبادٌ آخَرُونَ هم الملائِكةُ الَّذين عِندَ رَبِّك -يا مُحَمَّدُ-، فهم يُنَزِّهونَه لَيلًا ونَهارًا. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: فإنْ تَكَبَّروا عنِ السُّجودِ للهِ فهو غَنِيٌّ عن سُجودِهم؛ لِأنَّ له عَبيدًا أفضَلَ منهم لا يَفْتُرونَ عن التَّسبيحِ له بإقبالٍ دُونَ سَآمةٍ.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ [الأعراف: 206].

(وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ) أي: وهم لا يَمَلُّونَ مِن ذلك. موسوعة التفسير

فهذا يدُلُّ على أنَّهم مُواظِبونَ على التَّسبيحِ، لا ينفَكُّونَ عنه لحظةً واحِدةً.

كما قال تعالى: وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ [الأنبياء: 19، 20].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿39﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر الآياتِ الأربَعَ الفَلَكيَّةَ، وهي اللَّيلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقَمَرُ، أتْبَعَها بذِكرِ آيةٍ أرضيَّةٍ

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً) أي: ومِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّتِه وقُدرتِه تعالى على إحياءِ الموتى وغَيرِ ذلك: أنَّك ترَى الأرضَ يابِسةً مُجدِبةً لا نَباتَ فيها ولا زَرْعَ. موسوعة التفسير

(فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ) أي: فإذا أنزَلْنا الماءَ على تلك الأرضِ اليابِسةِ تحَرَّكَت وارتَفَعت. موسوعة التفسير

(إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى) أي: إنَّ الَّذي أحيا تلك الأرضَ الخاشِعةَ، فأخرَجَ منها النَّباتَ والزَّرعَ بالمطَرِ: لَقادِرٌ على إحياءِ الأمواتِ يومَ القيامةِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [الأعراف: 57].

وقال سُبحانَه: فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [الروم: 50].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ما بيْنَ النَّفخَتينِ أربعونَ. قالوا: يا أبا هُرَيرةَ، أربعونَ يَومًا؟ قال: أبَيْتُ. قالوا: أربَعونَ شَهرًا؟ قال: أبَيتُ. قالوا: أربَعونَ سَنةً؟ قال: أبَيتُ. ثمَّ يُنزِلُ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً فيَنبُتونَ كما يَنبُتُ البَقْلُ، وليس مِن الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبلى إلَّا عَظْمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ، ومِنه يُرَكَّبُ الخَلقُ يومَ القيامةِ)) رواه مسلم

(إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أي: إنَّ اللهَ ذو قدرةٍ على كلِّ شيءٍ، فلا يُعجِزُه شَيءٌ كائِنًا ما كان. موسوعة التفسير

الدنيا فانية زائلة منتهية لا محالة وتبدأ الرحلة الحقيقية إلى حياة الآخرة من الموت ثم القبر ثم البعث ثم الحشر ثم العرض والحساب ثم إلى الجنة أو إلى النار فمن أطاع الله ورسوله -ﷺ- فاز بجنات النعيم، قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ) [لقمان: 33].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿40﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن أنَّ الدَّعوةَ إلى دينِه أعظَمُ المناصِبِ وأشرَفُ المراتِبِ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ الدَّعوةَ إنَّما تَحصُلُ بذِكرِ دلائِلِ التَّوحيدِ والعَدلِ، وصِحَّةِ البَعثِ والقيامةِ- عاد إلى تهديدِ مَن يُنازِعُ في تلك الآياتِ، ويُحاوِلُ إلقاءَ الشُّبُهاتِ فيها؛ فقال

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا) أي: إنَّ الَّذين يَميلُونَ في آياتِ اللهِ عن الحَقِّ -كأن يُكَذِّبوا بها، أو يَسخَروا منها، أو يُحَرِّفوا مَعانيَها عن الصَّوابِ- لا يَخفَونَ على اللهِ تعالى؛ فهو مُطَّلِعٌ عليهم، وسَوفَ يُجازيهم على إلحادِهم، فيُلقِيهم في النَّارِ يَومَ القيامةِ. موسوعة التفسير

(أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أي: أفمَن يُلقَى في النَّارِ فيُعَذَّبُ فيها خَيرٌ أمْ مَن يأتي يومَ القيامةِ آمِنًا مِن عَذابِ اللهِ؛ لِكَونِه آمَنَ بآياتِه ولم يُلحِدْ فيها؟ أيَستَوي هذا وهذا؟ لا يَستَويانِ. موسوعة التفسير

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها: قال السعدي: لَمَّا تَبيَّنَ الحَقُّ مِن الباطِلِ، والطَّريقُ المنجِي مِن عَذابِ الله مِن الطَّريقِ المهلِكِ، قال

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ) أي: اعمَلوا -أيُّها المشرِكونَ- ما شِئتُم بعدَ أن عَلِمْتُم عَدَمَ استِواءِ المعذَّبِ في النَّارِ والآمِنِ منها. موسوعة التفسير

قال ابنُ عطية: (قَولُه تعالى: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ وعيدٌ في صيغةِ الأمرِ بإجماعٍ مِن أهلِ العِلمِ).

(إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) أي: إنَّ اللهَ بما تَعمَلونَ بَصيرٌ، لا يَخفَى عليه -سُبحانَه- شَيءٌ مِن أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها. موسوعة التفسير

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ ﴿41﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن عاشور: أنَّه أعقَبَ تَهديدَهم على الإلحادِ في آياتِ اللهِ على وَجهِ العُمومِ، بالتَّعرُّضِ إلى إلحادِهم في آياتِ القُرآنِ

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ) أي: إنَّ الَّذين كَفَروا بالقُرآنِ حينَ جاءَهم: هم الخاسِرونَ الأذَلُّونَ الأسفَلونَ. موسوعة التفسير

(وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ) أي: وإنَّ هذا القُرآنَ لَكِتابٌ عزيزٌ أعزَّه اللهُ وحَفِظَه مِن الباطِلِ، ومِن كُلِّ تَبديلٍ وتَحريفٍ، ومُمتَنِعٌ عن الخَلقِ أن يَقولوا مِثْلَه، أو يَغلِبوا حُجَجَه. موسوعة التفسير

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ﴿42﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال البقاعي: لَمَّا كان مِن مَعاني العِزَّةِ أنَّه مُمتَنِعٌ بمَتانةِ رَصفِه، وجَزالةِ نَظْمِه، وجَلالةِ مَعانيه: مِن أن يَلحَقَه تَغييرٌ ما؛ بيَّن ذلك بقَولِه

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) أي: ليس للبُطلانِ مِن سَبيلٍ إلى القُرآنِ. موسوعة التفسير

قال الماوَرْدي: (مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ: أحَدُها: لا يأتيه الباطِلُ مِن كِتابٍ قَبْلَه، ولا يأتيه مِن كِتابٍ بعدَه. قاله قَتادةُ. الثَّاني: لا يأتيه الباطِلُ مِن أوَّلِ التَّنزيلِ، ولا مِن آخِرِه. الثَّالِثُ: لا يأتيه الباطِلُ في إخبارِه عمَّا تقَدَّمَ، ولا في إخبارِه عمَّا تأخَّر. قاله ابنُ جُرَيجٍ. ويحتمِلُ رابعًا: ما بيْنَ يديه: لَفظُه. وما خَلْفَه: تأويلُه. فلا يأتيه الباطِلُ في لَفظٍ ولا تأويلٍ).

كما قال تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [الحجر: 9].

(تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) أي: تَنزيلٌ مِن حَكيمٍ يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائقِ به، ومِن حَميدٍ بالِغِ الإحاطةِ بأوصافِ الكَمالِ، مُنَزَّهٍ عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، مَحمودٍ على ذلك. موسوعة التفسير

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿43﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا هَدَّد المُلْحِدينَ في آياتِ اللهِ، ثمَّ بَيَّنَ شَرَف آياتِ اللهِ، وعُلُوَّ دَرَجةِ كِتابِ اللهِ؛ رَجَع إلى أمرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَصبِرَ على أذى قَومِه، وألَّا يَضيقَ قَلبُه بسَبَبِ ما حكاه عنهم في أوَّلِ السُّورةِ مِن أنَّهم قالوا: قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ إلى قَولِه: فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ [فصلت: 5].

(مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ) أي: ما يُقالُ لك -يا مُحَمَّدُ- إلَّا ما قد قِيلَ للرُّسُلِ الَّذين بُعِثوا مِن قَبْلِك. موسوعة التفسير

قال الماوَرْدي: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: ما يقولُ المشرِكونَ لك إلَّا ما قالَه مَن قَبْلَهم لأنبيائِهم: إنَّه ساحِرٌ أو مجنونٌ. قاله قَتادةُ. الثَّاني: ما تُخبَرُ إلَّا بما يُخبَرُ الأنبياءُ قَبْلَكَ بـ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ. حكاه ابنُ عيسى، وقاله الكَلْبِيُّ).

(إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ) أي: إنَّ ربَّك -يا مُحَمَّدُ- لَذُو سَترٍ عَظيمٍ على ذُنوبِ عِبادِه التَّائبينَ، وتَجاوُزٍ عن مُؤاخَذتِهم بها. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ [الرعد: 6].

(وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ) أي: وهو ذو عِقابٍ مُؤلِمٍ لِمَن أصَرَّ على كُفرِه ومَعاصيه، ولم يَتُبْ مِن ذُنوبِه قبْلَ مَوتِه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ [الرعد: 6].

أنَّ هذا القُرآنَ مَثانٍ؛ فإذا ذُكِرَ فيه جانبُ التَّرغيبِ ذُكِرَ معه جانبُ التَّرهيبِ؛ لئلَّا تَطمَعَ النَّفْسُ وتَغلوَ في الطَّمعِ فتأمَنَ مِن مَكْرِ اللهِ، ولِئلَّا يَخافَ فيَقنَطَ مِن رَحمةِ اللهِ، وعلى هذا فيَكونُ سَيرُه إلى اللهِ

تعالى بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ؛ ولهذا قال الإمامُ أحمدُ رَحِمه اللهُ: «يَنبغي للسَّائرِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يكونَ خَوفُه ورجاؤُه واحِدًا، فأيُّهما غَلَبَ هَلَكَ صاحِبُه». الدرر السنية

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿44﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن حيان: لَمَّا ذَكَر تعالى المُلْحِدينَ في آياتِه وأنَّهم لا يَخفَونَ عليه، والكافِرينَ بالقُرآنِ وما دَلَّ على تَعنُّتِهم وما ظَهَر مِن تَكذيبِهم، وقَولِهم: هلَّا أُنزِلَ بلُغةِ العَجَمِ! فقال: وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا أي: لم يَترُكُوا الاعتِراضَ، ولَقالوا: لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) أي: ولو جعَلْنا القرآنَ بلُغةٍ أُخرى غيرِ العَرَبيَّةِ لَقالَ كُفَّارُ قُرَيشٍ: هلَّا بيَّنَ اللهُ لنا آياتِ كِتابِه بلُغتِنا العَرَبيَّةِ؛ حتى نَعقِلَ ما فيه. موسوعة التفسير

(أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) أي: لو أُنزِلَ القُرآنُ بغَيرِ اللُّغةِ العَرَبيَّةِ لَقال كُفَّارُ قُرَيشٍ مُتعَجِّبينَ ومُنكِرينَ: أقُرآنٌ أَعجَميٌّ ورَسولٌ عَرَبيٌّ؟! كيف يَنزِلُ كَلامٌ أَعجَميٌّ على مُخاطَبٍ عَرَبيٍّ لا يَفهَمُه. موسوعة التفسير

قال تعالى: وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [الشعراء: 198 - 201].

(قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ) أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: القُرآنُ للمُؤمِنينَ هُدًى يُرشِدُهم إلى الحَقِّ، ويُعَلِّمُهم ما يَنفَعُهم، وهو شِفاءٌ لهم مِنَ الجَهلِ والشَّكِّ والشُّبُهاتِ، وأمراضِ القُلوبِ والأبدانِ. موسوعة التفسير

قال ابن القيم: هناك أمرٌ يَنبغي التَّفَطُّنُ له، وهو أنَّ الأذكارَ والآياتِ والأدعيةَ الَّتي يُستشفَى بها ويُرقَى بها: هي في نَفْسِها نافِعةٌ شافِيةٌ، ولكِنْ تَستدعي قَبولَ المَحَلِّ، وقُوَّةَ هِمَّةِ الفاعِلِ وتأثيرِه؛ فمتى تَخَلَّف الشِّفاءُ كان لِضَعفِ تأثيرِ الفاعِلِ، أو لعَدَمِ قَبولِ المنفَعِلِ، أو لِمانعٍ قَويٍّ فيه يَمنَعُ أن يَنجَعَ فيه الدَّواءُ، كما يكونُ ذلك في الأدويةِ والأدواءِ الحِسِّيَّةِ؛ فإنَّ عَدَمَ تأثيرِها قد يكونُ لِعَدَمِ قَبولِ الطَّبيعةِ لذلك الدَّواءِ، وقد يكونُ لمانعٍ قَويٍّ يمنَعُ مِن اقتِضائِه أثَرَه؛ فإنَّ الطَّبيعةَ إذا أخَذَت الدَّواءَ بقَبولٍ تامٍّ كان انتِفاعُ البَدَنِ به بحَسَبِ ذلك القَبولِ، فكذلك القَلبُ إذا أخَذَ الرُّقَى والتَّعاويذَ بقَبولٍ تامٍّ، وكان للرَّاقي نَفْسٌ فَعَّالةٌ وهِمَّةٌ مُؤَثِّرةٌ في إزالةِ الدَّاءِ.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [الأعراف: 52].

وقال عزَّ وجلَّ: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا [الإسراء: 82].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ ناسًا مِن أصحابِ رَسولِ الله -ﷺ- كانوا في سَفَرٍ، فمرُّوا بحَيٍّ مِن أحياءِ العَرَبِ، فاستَضافوهم فلمْ يُضَيِّفوهم، فقالوا لهم: هل فيكم راقٍ؛ فإنَّ سَيِّدَ الحَيِّ لَديغٌ أو مُصابٌ؟ فقال رَجُلٌ منهم: نَعَم، فأتاه فَرَقاه بفاتحةِ الكِتابِ، فبَرَأ الرَّجُلُ. فأُعطِيَ قَطيعًا مِن غَنَمٍ، فأبى أن

يَقبَلَها، وقال: حتَّى أذكُرَ ذلك للنَّبيِّ -ﷺ-، فأتى النَّبيَّ -ﷺ- فذكَرَ ذلك له؛ فقال: يا رَسولَ اللهِ، واللهِ ما رَقَيْتُ إلَّا بفاتحةِ الكِتابِ، فتَبَسَّمَ وقال: وما أدراك أنَّها رُقْيةٌ؟! ثمَّ قال: خُذُوا منهم، واضرِبوا لي بسَهمٍ معكم)) رواه مسلم

وعن عائشةَ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّ النَّبيَّ -ﷺ- كان إذا اشتكى يَقرأُ على نَفْسِه بالمعَوِّذاتِ، ويَنفُثُ، فلمَّا اشتَدَّ وَجَعُه كنتُ أقرأُ عليه، وأمسَحُ عنه بيَدِه؛ رجاءَ بَرَكتِها)) رواه مسلم

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ الله -ﷺ- إذا مَرِضَ أحَدٌ مِن أهْلِه نَفَث عليه بالمعَوِّذاتِ)) رواه مسلم

(وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ) أي: والَّذين لا يُؤمِنونَ في آذانِهم ثِقَلٌ؛ فلا يَنتَفِعونَ بسَماعِ الحَقِّ. موسوعة التفسير

❁قيل: المعنى: أنَّ في آذانِهم ما يَمنَعُ عنهم سَماعَ القُرآنِ سَماعَ فَهمٍ وانتِفاعٍ، فجعَلهم بمَنزِلةِ الصُّمِّ حِينَ لم يَسمَعوا سَماعَ قَبولٍ. الدرر السنية

كما قال تعالى: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا [الفرقان: 44].

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) أي: والقُرآنُ على قُلوبِهم عَمًى؛ فلا يُبصِرونَ حُجَجَه عليهم، ولا يَهْتَدونَ إلى ما فيه مِن البيانِ. موسوعة التفسير

❁عَمِيَتْ قُلوبُهم عنه.

وقال سُبحانَه: وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ [التوبة: 124، 125].

(أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) أي: أولئك البُعَداءُ البُغَضاءُ كأنَّهم لِعَمَى قلوبِهم عن فَهمِ ما أُنْزِل في القرآنِ مِن حُجَجِه ومَواعِظِه، وعدمِ انتِفاعِهم به- يُنادَونَ مِن مَوضِعٍ بعيدٍ منهم، فهم لا يَسمَعونَ النِّداءَ، ولا يَفهَمونَه. موسوعة التفسير

القرآن الكريم له تأثير عجيب حتى أنه أخترق قلوب كثير ممن كان على الكفر والضلال، وما زال يؤثر فيهم حتى عاد أصحابها إلى الهدى والإيمان، يقول جبير بن مطعم -رضي الله عنه- وكان من أكابر قريش: "سمعت النبي -ﷺ- يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: 35 - 37]، كاد قلبي أن يطير"؛ البخاري.

وكانت قصة عتبة بن ربيعة، وهي مشهورة وإسنادها حسن، وخلاصتها أن قريشًا اختارت أحسن رجالها ليُكلِّم النبي -ﷺ-، فجاء أبو الوليد عتبة بن ربيعة وكلَّم النبي -ﷺ- كثيرًا وهو مُنصِت له، فلما

فرَغ قال: ((قد فرغت يا أبا الوليد؟))، قال: نعم، قال: ((فاسمع مني)) قال: أفعل. قال: ((بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ...﴾ [فصلت: 1 - 4])). ثم مضى رسول الله -ﷺ- فيها يقرؤها عليه، فلما سَمعها منه عُتبة أنصتَ لها، وألقى يديه خلف ظهرِه معتمدًا عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله -ﷺ- إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: ((قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ، فأنت وذاك))، فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضُهم لبعض: نَحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به! فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قطُّ، والله ما هو بالشعر ولا بالسِّحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذي سمعتُ منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فملكُه ملككم، وعزُّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به! قالوا: سحَرَك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

وكان للقرآن أثره البالغ على أفئدة قساوسة النصارى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: 83]، بل تأثَّر به مردة الجان الذين كانوا قبل نزوله يَسترقون السمع؛ ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: 1، 2].

وللملائكة كذلك شأن مع القرآن الكريم؛ فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحَيهما - واللفظ للبخاري - عن أسيد بن حضير، قال: "بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكَت فسكتَتْ، فقرأ فجالت الفرس، فسكَت وسكتَتِ الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف، وكان ابنه يَحيى قريبًا منها، فأشفق أن تصيبه، فلما اجترَّه رفع رأسه إلى السماء، حتى ما يراها، فلما أصبح حدَّث النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ((اقرأ يا بن حضير، اقرأ يا بن حضير))، قال: فأشفقتُ يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريبًا، فرفعتُ رأسي فانصرفتُ إليه، فرفعتُ رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجتُ حتى لا أراها، قال: ((وتدري ما ذاك؟))، قال: لا، قال: ((تلك الملائكة دنَت لصوتك، ولو قرأتَ لأصبحتْ ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم)).

وكذلك يكون أثر القرآن حين يُتلى، وليس بمُستغرَب أن يُحوِّل القرآن قلوب اللصوص المجرمين إلى قلوب علماءَ سادة، علماء صالحين، والفُضيل بن عياض العالم العابد عليه رحمة الله نموذج واضح لما أقول، وقد حكى الذهبي في "سير أعلام النبلاء" قصة توبته وتأثره بالقرآن، فقال: "كان الفُضيل بن عياض شاطرًا يقطع الطريق ، وكان سبب توبتِه أنه عشق جارية، فبينما هو يَرتقي الجدْران إليها؛ إذ سمع تاليًا يتلو: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ... ﴾ [الحديد: 16]، فلما سَمعها، قال: بلى يا رب، قد آنَ، فرجَع، فآواه الليل إلى خَربة، فإذا فيها سابلة، فقال بعضهم: نرحَل، وقال بعضُهم: حتى نُصبح

فإن فُضيلاً على الطريق يقطع علينا. قال: ففكَّرتُ، وقلتُ: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين ها هنا يخافوني، وما أرى الله ساقَني إليهم إلا لأرتدعَ، اللهمَّ إني قد تبْتُ إليك، وجعلتُ توبتي مُجاورة البيت الحرام.

وأَكرِمْ وأَعظِمْ بهذا الكتاب الذي أحيا أمة بعد أن كانت في عداد الموتى! وصدق الله وهو أصدق القائلين: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21].

إذا كان هذا هو أثر القرآن في المشركين، وهو غيض من فيض، وقليل من كثير، فالسؤال هنا الذي يجب أن نسأله أنفسنا ما هو أثر القرآن فينا نحن المسلمين في هذه الأزمنة؟ وقبل هذا السؤال سؤال آخر: ما هو نصيبُنا من قراءة القرآن؟ وما هو حظنا من الخشوع والتدبر حين يتلى القرآن؟

اللهمَّ لا تَحرمنا فضلَكَ، ولا تصدَّنا بسبب ضعفِ نفوسنا وغلبة شهواتنا عن كتابك.